مرحلة إعادة الإعمار في سورية

رؤية أصولية، واقتصادية

د. وليد محمد حنيفي

دكتوراه في الاقتصاد الإسلامي

مدير مركز الهادي للقرآن والسنة / مرسين-تركيا

الجزء (١ / ٢)

يُعالجُ البحث مراحل إعادة إعمار الأرض السورية، بعد الحرب عليها، وفقْد مقوماتها الحضارية، التي أثّرت على أصالتها وهويتها، وذلك من ناحية أصوليَة واقتصادية؛ انطلاقًا من الواجب الشرعي لعمارة الأرض، مع توضيح الهدف من الإعمار، والمحور الرئيس لعمارة الأرض، والعوائق التي تعترض طريقَ مراحل إعمارِ الأرض السورية.

تُعدُّ الأرض السورية من الدول العربية والإسلامية المهمة تاريخيًا، ودينيًا، وهي مأهولة بالسكان منذ القديم؛ فقد أثّرت الحرب على الأرض السورية على كافة المستويات الاقتصادية، والأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية، والإنسانية، والسياسية، والبُنَى التحتية، والمعالم الدينية، والتاريخية، أعادت الحربُ الأرضَ السورية عشراتِ السنينَ للوراء؛ فالإنسان المسلم بطبيعة الحال مكلفٌ شرعًا بعمارة الأرض؛ فكيف إذا تعرضَتْ أرضهُ للحرب وللدمار، والخراب، فمن باب أَوْلَى أن يكون الواجبُ عليه أكبرَ تجَاهَ عمارتها من الناحية الدينية، والإنسانية؛ لأن الإنسان مستخلَفٌ في الأرض لعمارتها، لا للإفساد فيها وخرابها، كما يفعل المجرمون في الأرض، يُفسدون البشر، والحجر، والشجر.

المبحث الأول: مفهوم الإعمار

أسباب إعادة الإعمار: إنَّ السببَ الرئيس لعمارة الأرض لأنها عبادةٌ لله تعالى، والمسلم في الحالة الطبيعية مكلف بإعمار الأرض، بكل ما أوتي من قوة، وعلم، وعمل، فكيف إذا حلّت بالأرض كارثة؟ فيكون الواجب عليه أكبرَ في عمارتها.

عمليةُ إعادة الإعمار تَرْجعُ لحدوث كارثة، تحصل في مكانٍ وزمانٍ ما، تؤدي إلى أضرار مادية ومعنوية، تَظْهرُ الحاجةُ إلى إزالة هذه الأضرار، والوقاية مِنْ مثلها، للعودة بالأرض إلى شكلها قبل الكارثة، وهناك نوعان للكوارث:

- الأول الكوارث الطبيعية: (الزلازل، الانهيارات الأرضية، الجفاف، الفيضانات، الأعاصير، البراكين، الأوبئة... الخ)
- الثاني كوارثُ مِنْ صُنْعِ الإنسان: (الحروب، أعمال الشغب، الثورات، الانقلابات، الحوادث، السكن العشوائي، المخالفات القانونية...الخ)[1].

يتضَّح أن الأسباب الرئيسة لعمارة الأرض، عبادةٌ لله تعالى، حين حصول كوارث طبيعيَّة أو إنسانية.

المطلب الأول: تعريف الإعمار لغةً واصطلاحًا

الإعمار لغةً: من عَمَرَ، إشاعةُ الحياة في الشيء. إعمار الدار: بناؤها... وإعمار الأرض: إحياؤها[2].

والعمارة نقيض الخراب[3].

وجاء في المصباح المنير: "وَعَمَرْتُ الدَّارَ عَمْرًا أَيْضًا بَنَيْتُهَا، وَالْعِمَارَةُ: الْقَبِيلَةُ الْعَظِيمَةُ، وَالِاسْمُ الْعِمَارَةُ بِالْكَسْرِ"[4].

وجاء في لسان العرب: "العِمَارةُ: مَا يُعْمَر بِهِ الْمَكَانُ"[5].

وكذلك في تاج العروس: " وَفِي التَّنْزِيل: **(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)** هود، آية: ٦١. أَي أَذِنَ لَكُم فِي عِمَارتِهَا واسْتِخْرَاجِ قُوْتِكم مِنْهَا وجَعَلَكُم اللهُ عُمَّارَها. واسْتَعْمَرَ عِبادَه فِي الأَرْض: طَلَب مِنْهُم العِمَارَةَ فِيهَا"[6].

---

[1] ما قبل إعادة إعمار مدينة حلب، حالات سابقة، دروس مستفادة، أ.م. د/ محمد محمد أديب النجم، ص408، مجلة العمارة والفنون، العدد السادس عشر.

[2] معجم لغة الفقهاء، للقلعجي، ص77، محمد رواس قلعجي -حامد صادق قنيبي، دار النفائس، ط2، 1408ه -1988م.

[3] معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: خرب، ج2، ص174، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، (المتوفى: 395ه)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،1399ه -1979م.

[4] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مادة: ع م ر، ج2، ص429، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو 770ه)، المكتبة العلمية – بيروت.

[5] لسان العرب، لابن منظور، مادة: فصل العين المهملة، ج4، ص604، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711ه)، دار صادر – بيروت، ط3، 1414ه.

[6] تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مادة: ع م ر، ج13، ص129، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205ه)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

العمارة اصطلاحًا: يمكن أن نعرفها بأنها: "مجموعة الإجراءات والعمليات والسياسات المتبعة لإعادة إعمار الأرض، التي تؤدي لإشباع حاجات الإنسان الدنيوية والأخروية، وتشمل جميع مناحي الحياة الدينية والسياسة والاقتصادية والزراعية والتجارية والصناعية والاجتماعية والبُنَية التحتية"[1].

أو هي: "السعي في الأرض لاستثمار الخيرات التي أودعها الله تعالى في هذا الكون بما يحقق الحياة الطيبة والفوز بالآخرة"[2].

المطلب الثاني: الحكم الشرعي لعمارة الأرض السورية

الحكم الشرعي كما يعرفه الأصوليون هو: "خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييراً أو وضعًا"[3]. بمعنى: ما اقتضى الشرع فعله أو تركه، أو التخيير بين الفعل والترك، وهو: الأحكام التكليفية وفق أقسام خطاب التكليف والأحكام الوضعية في خطاب الوضع. ومعنى الشرع: "ما شرعه الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من الأحكام" والأحكام الشرعية إما تكليف وإما وضع، فتتضمن: الفرض، والمندوب، والمحرم، والمكروه، والمباح، والصحيح، والباطل.

قال الجصاص: "وقوله: **(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)** هود: (٦١)، يَعْنِي: أَمَرَكُمْ مِنْ عِمَارَتِهَا بِمَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى وُجُوبِ عِمَارَةِ الْأَرْضِ لِلزِّرَاعَةِ، وَالْغِرَاسِ، وَالْأَبْنِيَةِ"[4]. وقال الكيا الهراسي: "يدل على وجوب عمارة الأرض، فإن الاستعمارَ طلبُ العمارة، والطلبُ المطلق من الله تعالى للوجوب"[5].

تقول القاعدة الأصولية: "ما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلاَّ بِه فَهو واجِبٌ"[6]؛ فعمارة الأرض واجبةٌ على الإنسان؛ فيكونُ الإعمارُ واجبًا شرعيًّا على المكلَّف.

أولاً–الأدلة على مشروعية إعمار الأرض:

---

[1] الباحث.

[2] الباحث.

[3] رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، ج1، ص482، تاج الدين أبو نصر، عبد الوهاب بن [تقي الدين] علي بن عبد الكافي السبكي (٧٢٧ -٧٧١ه)، تحقيق: علي محمد معوض -عادل أحمد عبد الموجود، عالم الكتب، بيروت-لبنان، ط1، ١٩٩٩م -١٤١٩ه.

[4] أحكام القرآن، ج3، ص213، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: 370ه)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط1، 1415ه/1994م.

[5] أحكام القرآن، ج4، ص226، علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى: 504ه)، تحقيق: موسى محمد علي وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1405ه.

[6] المستصفى، ج1، ص217، أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505ه)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413ه -1993م.

دلّ القرآن الكريم، والسنة النبوية على مشروعية إعمار الأرض؛ فمن القرآن الكريم قوله تعالى: **وَهُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** (هود: ٦١). قال الطاهر بن عاشور: "الِاسْتِعْمَارُ الْإِعْمَارُ، أَيْ جعلكُمْ عامريها، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ كَالَّتِي فِي اسْتَبْقَى وَاسْتَفَاقَ. وَمَعْنَى الْإِعْمَارِ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْأَرْضَ عَامِرَةً بِالْبِنَاءِ وَالْغَرْسِ وَالزَّرْعِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُعَدُّ تَعْمِيرًا لِلْأَرْضِ حَتَّى سُمِّيَ الْحَرْثُ عِمَارَةً؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ عَمْرُ الْأَرْضِ"[1].

يُشيرُ الشيخ محمد متولي الشعراوي عن مدلول الاستعمار بقوله: "ومن الخطأ الشائع تسمية البلاد التي تحتلُّ بلاداً أخرى: دولَ الاستعمار، أقول: إنَّ ذلك خطأ، لأنهم لو كانوا دولَ استعمار، فهذا يعني أنهم يرغبون في عمارة الأرض، ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا يُخْرِبُونَ الأرض؛ ولذلك كان يجب أن تسمى "دول الاستخراب"[2]. وهذا ملحظ هام يجب الانتباه إليه.

ثانيًا: إعمار الأرض من سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الأنبياء عليهم السلام ساهموا في عمارة الأرض؛ لأنهم قدوات الناس، ولإظهار العلاقة بين الإنسان وبيئته، حدثنا القرآن الكريم عن مظاهر العمران عند الأنبياء، فمن مظاهر إعمار الأنبياء –عليهم السلام–

- عمارة البيت الحرام: قال الله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (البقرة: ١٢٧).
- التنمية الاقتصادية: قال الله تعالى عن سيدنا يوسف (): **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** (يُوسُفَ: ٥٥). قال ابن كثير: "حَفِيظٌ لِمَا اسْتَوْدَعْتَنِي، عَلِيمٌ بِسِنِي الجَدْب"[3]. قلتُ: وفي علم سني الجدب القدرة على إدارة الأزمة الاقتصادية التي ستمر بها البلاد.
- صناعة الحديد: قال الله تعالى عن سيدنا دواد: **أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** (سبأ: ١١).

---

[1] التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، ج12، ص108، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393ه)، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984ه.

[2] تفسير الشعراوي – الخواطر، ج11، ص6529، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418ه)، مطابع أخبار اليوم.

[3] تفسير القرآن العظيم، ج4، ص395.

- صناعة السفن: قال الله تعالى عن سيدنا نوح: **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** (هود: ٣٧).

يتبين مما سبق أنَّ سُنَّةَ الأنبياءِ عليهم السلام تنوعَتْ في فنونِ عمارةِ الأرض، وهذا ما يدعونا للاهتداء بهديهم، والاقتداءِ بسنتهم، لقوله تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** (الأنعام: ٩٠).

من هنا كانت عمارةُ الأرض وإصلاحُها، وحْظُر الفساد فيها، مما اتفقت عليه شرائعُ الأنبياءِ، ورسالاتُ السماءِ[1].

ثالثًا: الإعمار في السنة النبوية

السنة النبوية حضّت على عمارة الأرض بكل الوسائل من زراعة وتجارة وغيرها، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلمقَالَ: **(مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ)**[2].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ)[3].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍرضي الله عنهأيضًا، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا)[4]. يقول المناوي في شرحه عن حديث أنسرضي الله عنه: "حث على غرس الأشجار وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعلوم عند خالقها، فكما غرَسَ غيرُك ما شبعْتَ به فاغرسْ لمن يجيء بعدك"[5].

---

[1] رعاية البيئة في شريعة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص64، القاهرة: دار الشروق،2011م.

[2] أخرجه البخاري، برقم: 2335، كتاب: المزارعة، باب: من أحيا أرضا مواتًا، ج3، ص106. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلموسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط1، 1422ه.

[3] متفق عليه. أخرجه البخاري، برقم: 2320، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ج3، ص103. أخرجه مسلم، برقم: 1553، كتاب: المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، ج3، ص1189، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261ه)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

[4] الأدب المفرد، برقم: 479، باب: اصطناع المال، ص168.

[5] فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ج3، ص30، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: 1031ه)، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ط1، 1356.

وعن المِقدام رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: **(ما أكَلَ أحدٌ طعاماً قَطُّ خيراً من أن يَأكُلَ من عَمَلِ يَدِه، وإنَّ نبيَّ اللهِ داوُدَ عليه السلامُ كانَ يأكُلُ من عَمَلِ يَدِه)**[1].

وعن أبي هُرَيْرَةَ ،رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **(لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ)**[2].

يتضَّح من الأحاديث على أنَّ الجنسَ البشري على وجه العموم مطالَبٌ بإعمار الأرض، والمسلم على وجه الخصوص واجبٌ عليه ذلك مِن الناحية الدينية والإنسانية، فنفعُ المسلم يتعدَّاه إلى غيره من الناس جميعًا، على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلِهم، وهو مطالَبٌ بالتعايش مع البشر جميعًا في إطارٍ مِن التعاون الإنساني، والتعارف الذي لا يُخِلُّ بواجباته نحو خالقه سبحانه وتعالى.

إنَّ المسلمَ مطالَبٌ بتعمير الأرض عن عقيدة راسخة، وعلم نافع، وعمل متقن، وصدق تعامل، وأداءِ أمانةٍ، ووفاءٍ ووعد، وسلوك رشيد، وإنتاج جيد بعيداً عن التكبُّرِ والغرور والجشَع والطمع، وكُلِ ما يُخِلُّ بالفطرة الإنسانية التي فطَرَ اللهُ الناس عليها، وهذا الزمن الذي نعيشه، وواقعنا الذي نحياه أحوجُ ما نكون فيه إلى العمل والإعمار مِن غيره، بعدما تخلَّفْنا عن الرَّكْبِ، ودبَّ النزاعُ والشقاقُ بيننا، فهل مِن مدَّكِر؟ وهل مِن مستجيب؟!

المطلب الثالث: عوائق الإعمار

إنَّ إعادة الإعمار منظومة تشمل كل جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية...واضافة المبلغ المقدر لإعادة الإعمار.

لا يُنكرُ مدى كُلفَة إعادة إعمار الأرض السورية؛ لأنها تُوَاجِهُ تحدِّيًا اقتصاديًا هائلاً، نتيجة حجم الدمار والخراب، وتُعدُّ الحربُ في سورية من أسواءِ الكوارث الإنسانية، والاقتصادية، وكانت لها تداعياتٌ كبيرةٌ على بقية دُوَلِ العالم.

لا شك أنَّ هناك أضراراً كبيرةً لحقتْ بالاقتصاد، والبُنْية التحتية، ورأس المال المادي، وكل جوانب الحياة.

---

[1] أخرجه البخاري، برقم: 2072، كتاب: البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، ج3، ص57.

[2] أخرجه البخاري، برقم: 2374، كتاب: المساقاة، باب: بيع الحطب والكلأ، ج3، ص113.

بعد انتهاء الحرب سوف ترثُ سوريةُ، اقتصاداً منهاراً، وسوقَ عملٍ ضعيفةً، ونظاماً تعليمياً معُطَّلاً، ورأسَ مالٍ بشرياً غيرَ مكتمل؛ لذلك سيكون هناك العديدُ من التحدّيات المُعقّدة التي ستواجه عمليةَ إعادةِ الإعمار.

لذلك كان هناك حاجةٌ مُلِحّةٌ إلى وضع استراتيجية طموحة لإعادة إعمار البلد وتوجيهه نحو مسار النمو والازدهار، ففي غيابها سيتم هدر المبالغ المخصَّصَةِ لإعادةِ الإعمار، فمن أهم عوائق الإعمار، ما يأتي: عُلُوُّ الحاكمِ وزبانيتهِ على الناس في الأرض، اتباع الهوى، تخريب بيئة الأرض، الظلم في الأرض، الإفسادُ في الأرضِ.

١- عُلُوُّ الحاكمِ وزبانيتهِ على الناس في الأرض:

يقول ابن تيمية: " فَإِنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: يُرِيدُونَ الْعُلُوَّ على الناسِ، والفسادَ في الأرضِ وهو مَعْصِيَةُ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ الْمُلُوكُ وَالرُّؤَسَاءُ الْمُفْسِدُونَ، كَفِرْعَوْنَ وحِزْبِه، وهؤلاءِ هم شرارُ الخَلْقِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** (القصص: ٤).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍرضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: **(لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ)**[1]. فَبَطَرُ الْحَقِّ دَفْعُهُ وَجَحْدُهُ. وَغَمْطُ النَّاسِ احْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ، وَهَذَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ الْعُلُوَّ وَالْفَسَادَ.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْفَسَادَ، بلا علوٍّ، كالسراق والمجرمين من سَفِلَةِ الناس.

والقسم الثالث: يريدون الْعُلُوَّ بِلاَ فَسَادٍ، كَالَّذِينَ عِنْدَهُمْ دِينٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلُوا بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ.

[1] أخرجه مسلم، برقم: 147، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، ج1، ص93، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261ه)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

وأما الْقِسْمُ الرَّابِعُ: فَهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، الَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ يَكُونُونَ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** (آل عمران، ١٣٩)[1].

وأيُّ فسادٍ أعظمُ من تدميرِ الناس بالبراميل المتفجرة، وتمزيقهم الأشلاء، وخنقهم بالأسلحة الفتّاكة مثل الكيماوي وغيرها، فهذه المفاسد العظيمة يُرادُ بها القضاءُ على سُلالةِ أهل السنة والجماعة وجعلهم أقليّةً لا حولَ لها ولا طَوْلَ، وبهذا يكون القضاءُ على الكائن البشري الذي أمره الله تعالى بإعمارِ الأرض، وإحياءِ النفس البشرية، وهذا من أعظم المفاسد في الأرض.

٢- اتباع الهوى:

يكون ذلك بركض الإنسان وراء شهواته، وإشباع غرائزه الدَّنيّة، على حساب المُثُلِ العليا وخضوعه لنداء أنانيته وفرديّته، ولو جار ذلك على حقوقِ غيره، وترجيحِ رغباتِ يَوْمِه دونَ التفاتٍ إلى غَدِه. قال الله تعالى: **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** (الْجَاثِيَة: ٢٣).

وقال: **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** (الفرقان: ٤٣-٤٤).

يتضح من الآيتين أنَّ مَنِ اتخذَ آلهةً غيرَ اللهِ تعالى مِنْ حَيْثُ التعاليمُ والهُدَى والرشادُ، فعندَ ذلكَ تقودُهُ شهوته وملذّاته ورغبته إلى ما حرَّم الله تعالى؛ وبذلك يكونُ قد عطَّل عقْلَه عن مُرادِ اللهِ تعالى؛ فينحطُّ من إنسانيته إلى درجة الأنعام بل أضلُّ من ذلك سبيلاً.

وقال الله تعالى: **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** (ص: ٢٦).

---

[1] السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص131، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728ه)، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد -المملكة العربية السعودية، ط1، 1418ه.

أنزلَ الله تعالى الكُتُبَ السماويةَ، وأرسلَ الرسلَ عليهم السلام، ليُخْرِجَ الناسَ من العبودية للأهواء إلى العبودية لربِّ السماء، فبغير العبودية لله تعالى ينتشرُ الفسادُ في الأرض، فما فسدت الأرض بعوامل الطبيعة، أو الوحش أو الطير، إنما بطغيان وبغي الإنسان على أخيه الإنسان، والتاريخُ خيرُ شاهدٍ على ما أقولُ والحرب العالمية الأولى والثانيةُ ليستْ ببعيدةٍ عنّا، واليومُ حربُ اليمنِ السعيد، والعراق الجريح، وفلسطين المغصوبة، وسورية الحبيبة.

قلتُ: طال الفساد الإداري في سورية: الذي يمكن أن يؤدي إلى سوء توزيع الموارد والتمويل، ما يؤثر على فاعلّية مشاريع الإعمار.

ومن الفساد الانقسامات السياسية بين الأطراف المتحاربة التي تعرقل تنسيق جهود الإعمار وتؤدي إلى نقص في التنسيق والفعالية.

٣- تخريب بيئة الأرض:

يُعرِّفُ القرضاوي البيئة بقوله: "هي المحيط الذي يعيش فيه الإنسان"، ويقول أيضًا: "إن الجناية على البيئة ينافي جوهرُ التديُّن الحقيقي، ويناقضُ مهمةَ الإنسانِ في الأرضِ، ويخالفُ ما أمرَ اللهُ تعالى به الإنسانَ بالنسبة للمخلوقاتِ مِنْ حَوْلِه، إنَّ الجورَ على البيئة والقسوةَ عليها، والإساءةَ إليها ينافي (العدلَ والإحسانَ)، اللَّذَيْنِ أمرَ اللهُ بهما في كتابه قال الله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى** (النحل: ٩١)، وهي تنافي مهمة (الاستخلاف) التي كُلِّفَ بها الإنسانُ في الأرض، فهذه الأرضُ ليستْ أرضَه، ولا مُلْكَهُ، إنما هي أرضُ الله تعالى ومُلْكُهُ، جعله خليفةً فيها، يتكلم فيها بأمره، ويعمل فيها وَفْقَ سُنَنِه في خلقه، وأحكامه في شرعه[1]. وكما قال الله تعالى: **قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ** (الزمر: ١٠).

وقال الله تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام: **وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ** (هود: ٦٤). وقال: **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** (الأعراف: ١٢٨).

[1] رعاية البيئة في شريعة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، يوسف، ص12.

ويُشير القرضاوي إلى أنه "لا يجوز للإنسان أن ينسى أنه مستخلَفٌ في مُلكِ الله، وأرضِ الله، ويتصرف كأنه هو السيد المالك الذي لا يُسأَلُ عما يفعل، وهي أيضًا تنافي ما أمر الله به من عمارة الأرض، وإصلاحها، وما نهى عنه من إفسادها وتخريبها، كما قال الله تعالى: **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** (الأعراف: ٥٦)"[1].

فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَارِيِّرضي الله عنه، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَقَالَ: **(مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ)** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: **(العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلاَدُ، وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ)**[2].

يتبين من الحديث أنَّ العبد الفاجر يُعملُ إجرامه في العباد والبلاد، وحتى الشجرُ والدوابُّ لا تَسْلَمُ منه؛ وعند إمعان النظر يتضح أنَّ سورية لم تَسْلَمْ من الأذى، والدمار، والخراب، وحرقٍ للبيئة، وللإنسان من قتلٍ، وتشريدٍ، وسجنٍ، وإهانةٍ، وحتى دوابُّ الأرض لم تسلمْ من القتل، وهذا شأن العبد الفاجر الذي لا يدع شيئًا إلا وأجهز عليه بكل أنواع الأذى.

قلتُ: طال التدمير الواسع للبنية التحتية السورية: العديد من المنشآت الأساسية مثل الطرق والجسور والمستشفيات والمدارس دُمرت بالكامل أو تضررت بشكل كبير، ما يجعل عملية إعادة بنائها معقدة ومكلفة.

وطال أيضًا الأثر البيئي والتلوث وتدهور البيئة: إنَّ الحرب في سوريا ألحقتْ أضرارًا كبيرة بالبيئة، ما يتطلب جهودًا إضافية لمعالجة التلوث وإعادة تأهيل البيئة قبل استئناف الأنشطة الاقتصادية.

٤- الظلم في الأرض:

قال ابن الأثير الجزري: "وأصلُ الظُّلْم: الجَوْرُ ومُجاوزَةُ الحدِّ"[3].

---

[1] المرجع السابق، ص47-48.

[2] متفق عليه. أخرجه البخاري برقم: 6512، كتاب: الرقاق، باب: سكرات الموت، ج8، ص107. وأخرجه مسلم، برقم: 950، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في مستريح، ج2، ص656.

[3] النهاية في غريب الحديث والأثر، ج3، ص161، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606ه)، المكتبة العلمية -بيروت، 1399ه -1979م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي -محمود محمد الطناحي.

ولـلظلم أنـواعٌ منـها: ظـلمُ الإنـسان لـنفسه، وأعـظمُه الإشـراكُ بـالله، قـال الله تـعالـى: **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (لقمان: ١٣).

ومنها ظلمُ الإنسانِ غَيْرَهُ، وقد حذّرت الأحاديث الشريفة منه، ففي الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (**الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ**)[1].

فمن آثار الظلم النزوح الداخلي واللجوء والتشريد الكبير: الملايين من السوريين اضطروا للنزوح داخل البلاد أو اللجوء إلى الخارج، ما يؤثر على توزيع الموارد والقدرة على تنفيذ المشاريع في المناطق المتضررة؛ فهل بعدَ ظُلْمِ الإنسانِ السوريِّ ظُلْمٌ؟ وهل بعد ظُلْمِ الأرضِ السوريةِ ظلمٌ؟

ومن الظلم الذي طال الناس في سورية الاضطرابات الأمنية والصراعات المستمرة: استمرار الخراب في بعض المناطق يعوق جهود إعادة الإعمار، حيث يمكن أن تتعرض المشاريع لأعمال تخريب أو هجمات، ما يزيد من مخاطر تنفيذ المشاريع.

٥- الإفسادُ في الأرضِ: الفساد آفة العصر، وإذا كانت الأمم المتحدة اتخذت التاسع من ديسمبر يومًا دوليًا لمكافحة الفساد، وعرفت الفساد بأنه: "سوء استعمال السلطة العامة لتحقيق مكسب خاص"، فإن الإسلام ونظامه الاقتصادي حارب الفساد على مدار الوقت، وجعله آفةً ومعرةً ومهلكًا للأمم، فالفساد نقيض الإصلاح، ومن خلاله تضيع الحقوق وتُنتهك المصالح وتقتل الروح المعنوية تقتيلاً"[2].

جاء في تعريف الفَساد: "نَقيضُ الصَّلاح"[3].

وبالرجوع إلى المعاجم اللغوية نلاحظ معنى الفساد لا يخرج عن المعاني الآتية: النتن، والعطب، ومجاوزة الحق، ومجانبة الحكمة، والمدابرة، والقطيعة، والاضطراب، والخلل، والجدب، والقحط، وإلحاق الضرر، واللهو، واللعب، فمجموع هذه المعاني تساوي الفساد، ومما لا شك فيه أننا إذا أمعنَّا النظرَ في كل معنىً من معاني الفساد لتوصلنا إلى أنَّ الفساد لا يُبقي للخير موضعًا، ويهدم البناء لبنةً لبنةً سواءٌ على الصعيد المادي أو المعنوي[4].

---

[1] متفق عليه. أخرجه البخاري، برقم: 2447، كتاب: المظالم والغصب، باب: الظلم ظلمات يوم القيامة، ج3، ص129. ومسلم، برقم: 2579، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، ج4، ص1996.

[2] الفساد من منظور الاقتصاد الإسلامي، أشرف دوابه، مجلة المجتمع، ص44، العدد (2148)،2020م.

[3] العين، للفراهيدي، باب: الحاء والطاء واللام معهما، ج3، ص170.

[4] وعاد مجتمعُ مَدْيَنَ من جديد، د. أحمد النعمة، ص55، 2020م، ط1، دار موزاييك، إستنبول. بتصرف.

إنَّ ما يجري في سوريةَ من سرقاتٍ، ونهبٍ، وسلبٍ، وَرُشًا، واستغلال حاجة الناس، لأَكْبَرُ دليلٍ على الفساد المستشري من أعلى قِمَّة في الهرم، حتى القاعدةِ الشعبية.

قال الله تعالى: **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** (البقرة: ٢٠٥). وقال ابن كثير: "فَهَذَا الْمُنَافِقُ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَإِهْلَاكَ الْحَرْثِ، وَهُوَ: مَحلُّ نَمَاءِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالنَّسْلِ، وَهُوَ: نِتَاجُ الْحَيَوَانَاتِ الَّلذيْنِ لاَ قوَام لِلنَّاسِ إِلَّا بِهِمَا"[1].

قلتُ: ومن الفساد والظلم الذي طال الناس تدهور الاقتصاد السوري بسبب الحرب ما أدى إلى نقص في الموارد المالية اللازمة لإعادة الإعمار. بالإضافة إلى ذلك تواجه البلاد صعوبات في جذب الاستثمارات وإعادة بناء القطاعات الاقتصادية.

وكذلك أدّت الحرب إلى تفكك المجتمع السوري وزيادة الانقسامات الطائفية والعرقية، ما يعقّد عملية المصالحة وبناء التماسك الاجتماعي.

وكذلك التحديات في تقديم المساعدات الإنسانية بشكل فعّال إلى المناطق المتضررة، ما يؤثر على جهود الإعمار ويزيد من معاناة السكان.

كل ذلك يتطلب منا مواجهة هذه العوائق تنسيقًا دوليًا ومحليًا فعالاً، واستراتيجيات طويلة الأمد تتضمن تقديم الدعم المالي، وتحسين الأوضاع الأمنية، وتعزيز جهود المصالحة، ومعالجة القضايا البيئية والاجتماعية.

[1] تفسير ابن كثير، ج1، ص564.